رواية فوضى الحواس لأحلام مستغانمي
قراءة أدبية سردية

د. عبد العزيز القماطي ـ كلية التربية الزاوية ـ جامعة الزاوية

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة مختصرة عن حياة أحلام مستغانمي:

من هي أحلام مستغانمي:

ولدت الكاتبة المشـــهورة أحلام محمد الشـــريف مســـتغانمي في (13 أبريل 1953) في جمهورية تونس، وهي جزائرية من مدينة قســـنطينة عاصـــمة الشـــرق الجزائري مســـقط رأس والدها محمد الشـــريف، شـــارك والدها في الثورة الجزائرية، فســـجن بســـبب مشـــاركته في مظاهرات 8 مايو 1945م في الجزائر، وبعد أن أطلق سراحه سنة 1947م، كان قد فقد عمله بالبلدية، ومع ذلك فإنه يعتبر محظوظا إذ لم يلق حتفه مع من مات آنذاك 45 ألف شـهيد سـقطوا خلال تلك المظاهرات وأصـبح ملاحقا من قبل الشرطة الفرنسية، بسبب نشاطه السياسي بعد حل حزب الشعب الجزائري، الذي أدى إلى ولادة حزب جبهة التحرير الوطني[1] .

عملت في الإذاعة الوطنية مما خلق لها شهرة كشاعرة، انتقلت إلى فرنسا في سبعينات القرن الماضـــي ، حيث تزوجت من صـــحفي لبناني، وفي الثمانينيات نالت شـــهادة الدكتوراه من جامعة الســـوربون الفرنســـية. تقطن حاليا في بيروت. وهي حائزة على جائزة نجيب محفوظ للعام 1998 عن روايتها ذاكرة الجسد[2].

من بين جوائزها وأوسمتها المشهورة[3] :

1. تسلمت درع بيروت من محافظ بيروت في احتفال خاص أقيم في قصر اليونسكو. حضر الحفل 1500 شخص، متزامنا مع إصدار كتابها" نسيان كم" في 2009.
2. اختيرت من قبل مجلة فوربس الكاتبة العربية الأكثر نجاحا مع مبيعات.
3. تخططت الـــــ . 2,300,000 وواحدة من عشـــر نســـاء الأكثر تأثيراً في العالم العربي والمرأة الرائدة في مجال الأدب.
4. تلقت درع مؤسسة الجمار للإبداع العربي في طرابلس، ليبيا في 2007.
5. اختيرت كالشخصية الثقافية الجزائرية لعام 2007 من قبل مجلة الأخبار الجزائرية ونادي الصحافة الجزائرية.

6. اختيرت لمدة ثلاثة أعوام على التوالي 2006 و 2007 و2008 باعتبارها واحدة من الشخصيات العامة المائة الأكثر نفوذا في العالم العربي من قبل مجلة أريبيان بزنس، وحلت في المرتبة رقم 58 في 2008.
7. سميت المرأة العربية الأكثر تميزا لعام 2006، وقد تم اختيارها من بين 680 مرشحة من قبل مركز دراسات المرأة العربية في باريس / دبي.
8. نالت وسام الشرف من الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة في 2006.
9. تلقت وسام التقدير والامتنان من مؤسسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، قسنطينة 2006.
10. تلقت من لجنة رواد لبنان وسام لأعمالها في عام 2004.
11. حصلت على جائزة جورج طربيه للثقافة والإبداع، في لبنان 1999.
12. حصلت على جائزة نجيب محفوظ لروايتها ذاكرة الجسد" في عام 1998.
13. حصلت على جائزة مؤسسة نور للإبداع النسائي في القاهرة عام 1996

مؤلفاتها المشهورة[4]:

1. رواية: على مرفأ الأيام، عام 1973.
2. رواية: كتابة في لحظة عري، عام 1976.
3. رواية: ذاكرة الجسد، عام 1993
4. رواية: فوضى الحواس، 1997.
5. رواية: عابر سرير، 2003.

تعريف موجز عن رواية فوضى الحواس للراوية أحلام مستغانمي :

وبعد اطلاعي على رواية فوضى الحواس وجدت أنها تتكون من (375) صفحة، موزعة على خمسة فصول، عنونّت كل منها بكلمة من معجم كلمات البطل (خالد بن طوبال) المصور، باستثناء الأولى، التي جاءت عنوانا للفصل الأول، واستخدمت فيها كلمة: (بدءا، دوما، طبعا، حتما، قطعا). تبدأ هذه الفصول وتنتهي بجمل فعلية، باستثناء الفصل الأول الذي يبدأ بجملة اسمية، وينتهي بها، والخامس الذي يبدأ بجملة اسمية أيضا. كما تتفاوت في طولها؛ إذ يقترب الأول (30) صفحة من الرابع (37) صفحة، والثاني (93) صفحة من الثالث (57) صفحة، ويكون الخامس أطولها (136) صفحة، وهكذا تم توزيع روايتها (فوضى الحواس).

أولا- طبيعة السرد في الرواية:

إن السرد متسلسل في الرواية، فهو سرد متصاعد، دون أن يخلو من استرجاعات واستباقات، ولعل الطريف في شكل الرواية، جعل فصلها الأول (30) صفحة خارج نصها، على الرغم من كونه يشغل حيزا فيها، باعتباره قصة كتبتها الروائية الراوية، التي أعجبت بالبطل، فرغبت في البحث عنه في الواقع، ليشكل بحثها عنه، ثم عثورها عليه، وما حدث بينهما في قصة حب، ليشكل قصة نصها الروائي، التي تبدأ ببداية الفصل الثاني، وكأن هذا الفصل إيجاز للرواية، أو النواة التي جاءت منها الرواية.

إن رواية فوضى الحواس نسجت بطريقة خاصة فبدياتها عفوية وبنهاية مفتوحة؛ حيث تتحول "حياة" المروي عليها في الجزء الأول من الرواية، إلى راوية نفسها، لتصبح شخصية محورية، تسرد بضمير المتكلم عن ذاتها، ودقائق انفعالاتها، بيد أنها لا تصطنع ضمير المخاطب كما هناك، بل ضمير الغائب، فبقدر ما تزيدها الأنا مثولا، وتعريها من الداخل، تبعده ال هو، وتجعله غير مائل في النص كشخص مروي عنه، فلا نستمع له إلا في حوار يظل مقتضبا، وغير كافٍ لتعريته من الداخل. وهذه سمة مهمة في هذه الرواية العملاقة في رواية النسوي بأحلام سمتغانمي راوية محنكة وخبيرة ومتمكنة في تكوين رواياتها. وبعد ان بينت أهمية طبيعة السرد في الرواية أتطرق الآن إلى عرض أحد أركان السرد في الرواية.

ثانيا- السارد والمسرود له في رواية (فوضى الحواس):

لقد اختارت أحلام مستغانمي في روايتها (فوضى الحواس)حياة راوية أنثى لنصها من ناحية؛ فلا تثار إشكالية الراوي الذكر التي أثيرت من ناحية أخرى ويلاحظ المتابع أن النص المروي عنه يفتقر إلى ممثل في داخله، دون أن يعني ذلك غيابه، ومعروف أن:" المروي عنه يمكن أن يكون غير مرئي في السرد، موجود رغم ذلك ولا ينسى كلية" أبدا"[5]. على الرغم من أن أحلام مستغانمي تطبعه فيما بعد ويقرأه قراء لا يعنيهم أمره، ونستشف ذلك من رأيها في الروايات" والتي ليست إلا تذكيرا بخيانة لقارئ واحد. نسرق منه بذريعة أو بأخرى مخطوطاً كتب له، كي نصنع منه آلاف النسخ المزورة، لقراء لا يعنيهم أمرنا. قطعا .. في كل نجاح لكتاب خيانة لشخص"[6].

ولا ننكر أن غالبا يكون المروي عنه هو الإنسان أيا كان، إذ تشتمل عليه بعض عباراتها بضمير المتكلم الجماعة "لا يحدث للإنسان ما يستحقه.. بل ما يشبهه"[7] ، و "فلم الألم ..؟ ما دامت تلك النهايات تشبهنا.. حتى لكأنما الموت يجعلنا أجمل"[8].

ووجدت أنها تصطنع في عبارات أخرى ضمير المخاطب، الذي يحتمل أن يكون المروي عنه شخصا وهميا، خاصة عندما لا تذكر قرينة تؤكد تطابقها معه، ومن ذلك "وحده الزمن سيدلك على الصواب، عندما يفقد الآخرون صوابهم[9] .

كما يحتمل أن تكون هي ذاتها المروي عنه، وذلك في العبارات التي تذكر فيها ما يؤكد تطابقها مع المخاطب، ومنها "أن تخلو بنفسك ساعتين في سيارة يقودها سائق عسكري يعود بك من موعد حب .. يساعدك في ذلك زي التقوى الذي تلبسه"[10]، فهي التي عادت من موعد حب، ترتدي عباءة التقوى؛ إذ تؤكد في الصفحة ذاتها خلعها لتلك العباءة "حتى أسرعت بخلع تلك العباءة"[11]، وكانت قد أكدت ارتداءها لها في موضع سابق"[12]

ويقول -أيضاً- "أن تذهب إلى موعد حب، وإذا بك مع شخص خارج توا من كتابك، يحمل الاسم نفسه، والتشويه الجسدي، نفسه لأحد أبطالك.. "[13]، الكاتبة التي حدث معها هذا الذي تؤكده بضمير المتكلم "ما يدهشني هو كون هذا الرجل، يواصل معي قصة بدأت في رواية سابقة"[14]

لهذا نرجح أن تكون هي المروي عنها هنا وليس شخصا وهميا، رغم عدم تأنيثها للضمائر، الأمر الذي فعلته في موضع آخر[15]، وذلك من قبيل اللعب الروائي الذي تتقنه الكاتبة ببراعة .

ثالثا- اللغة الخطابية في الرواية:

إن الراوية عملت في توظيف ضمائر بطريقة فنية راقية، تنفتح الأنا على جميع الضمائر، فتدلل "حياة" على شخصها بالضمائر الثلاثة، حتى أنها تجمعها في عبارة واحدة، فمثلا تقول في هذه الجزئية "ولكن كنت أعي تماما أنني أرتكب حماقة غير مضمونة العواقب، بذهابي بمفردي لمشاهدة فيلم، في مدينة مثل قسنطينة، لا ترتاد فيها النساء قاعات السينما. فما بالك إذا كانت هذه المرأة زوجة أحد كبار ضباط المدينة، وتصل إلى السينما في سيارة رسمية"[16]

فالراوية كغيرها من قصاصين وكتاب الرواية وظفت عند حديثها عن الآخرين بضمير الغائب، لكن على الرغم من اتباعها نهج من سبقها من الكتاب إلا أنها تشير به إلى ذاتها، قالت: "لم يبق لها من تلك القصة سوى عطر اختزنه جسدها"[17].

وقد تصنع –أيضاً- في استخدام ضمير المخاطب مجردة من ذاتها أخرى تخاطبها، مؤكدة توحدهما دوما، كنت أقول لامرأة كانت أنا: لا تمري عندما تشعل الحياة أضواءها الحمراء.."[18]، وتكثر أمثلة هذا في الرواية، كما تمازج بين المتكلم والمخاطب "اغتالني عطر رجل مات توا، تاركا لي رائحة الوقت .. ومدينة جبلية يحلو لها أن تخيفك بجسور الاستفهام"[19] .

بيد أن مراوحتها بين الضمائر، كما في "ذاكرة الجسد"، لم تكن عبثية، أو مجرد مسألة شكلية جمالية، بل تفرضها نفسية الراوية، كما فرضها المضمون هناك، فهي تسرد للقارئ عمّا أصابها من دهشة إثر تهول قصة كتبتها إلى واقع معيش، فتشير إلى نفسها بالغائب، وكأن الأحداث تجري لأخرى، لبطلة قصتها وليس لها، كما تشير به إلى "حياة" بطلة الجزء الأول، وكأنها غيرها، رغم كونهما شخصية واحدة[20]. ويأتي استخدامها للمخاطب، نتيجة لوحدتها ودهشتها التي لا تستطيع اطلاع أحد عليها؛ فلا يعقل أن تحدث زوجها عن حبها لآخر، ولا أمها المنشغلة بالحج، ولا أخاها "ناصر" المنهمك بقضاياه أيضا ... ولأن خالد المصور مجهول أمامها، تلجأ إلى تحليل تصرفاته وأقواله، مع ذاتها، تحلل بصوت عال إن جاز التعبير .

رابعا ـ شخصيات الرواية:

تتولى "حياة" زمام السرد هنا، متحدثة عن ذاتها، لتكون هذه الرواية بوحا اعترافياً منها، ليس إزاء "خالد" الرسام، بل إزاء "خالد" آخر هو بطل هذه الرواية، فتطلعنا على رأيها في الرجال والحب وزوجها وأمها وأخيها والوضع الجزائري وتحديدا المرأة .. من منظور ذاتي، يطال خلجات النفس، وخفايا الشعور لم يكن قرطي الذي وقع مني هذه المرة: وإنما قلبي الذي أصبح بكلمة واحدة يقع مغمى عليه"[21]

كما نستمع إلى "خالد" المصور متحدثا عن ذاته" لنقل إنني منشق عن أحلامي أنا الشاهد الأخير يا سيدتي على الأفول العربي. قضيت عمري على شرفة الخيبة"[22].

بينما تكون نظرتها للشخصيات الأخرى موضوعية خارجية؛ إذ تعتمد على شكلها وتصرفاتها وأقوالها وأثاث منازلها .."أتأمل طويلا أصابعه، أشعر أنها في امتلائها وطولها تقول الكثير عن رجولته"[23].

خامسا- مستويات السارد:

في الرواية مستويان للسارد؛ الأول تعرف فيه الشخصية عن السارد أكثر من معرفته عنها، وذلك في الفصول (2، 3، 4، 5)، ويبدو عليما محيطا بشخوصه في المستوى الثاني، وذلك في الفصل الأول .

فلا تعرف "حياة" عن "خالد" الصحفي إلا ما يبدو لها من كلامه ولباسه وأثاث بيته وذوقه في انتقاء كتبه، بينما يعرف هو عنها ما يكفي لإدهاشها، وجعلها تغرق في حيرتها "ومده أمام دهشتي بورقة نقدية.. وبعنواني كاملا، طالبا منه أن يوصلني حتى الباب"[24]، ويتأكد جهلها لدى تسميتها له وفقا للون لباسه "أجاب اللون الأسود"[25] ، ولتعرف المزيد، تلجأ إلى وسائل السارد الشاهد، تراقب تصرفاته، وتستنتج "من خلال يديه عرفت أنه عرف الحياة حد الولع[26]، حتى زوجها، لا تعرف شيئا عن عشيقاته، وتصرفاته خارج بيته إلا من جارة عجوز[27] ، وتؤكد هي أن هذا مخالف لمنطق السرد "طبعا، في منطق الأشياء كان يجب أن أعرف عنه أكثر مما يعرف عني. ما دام ليس إلا بطلا في قصتي ولكن أصبح إبداعي الآن يقتصر على التحايل عليه. لاكتشاف قصتي الأخرى وهي تروى على لسانه"[28].

تتحايل عليه فعلا، وأمام سيل أسئلتها، يبوح بشيء عن ذاته، وتعرف أنه صحفي، مثقف، شلت ذراعه اليسرى بسلاح جزائري، لحظة تصويره لحدث ما، رجل صامت، يفلسف الحزن، ويختزل اللغة في أربع كلمات جعلتها عناوين لفصولها، قرأ روايتها "ذاكرة الجسد"[29] ، فقرر التعرف عليها بعد أن عرف عنها الكثير، دون أن تعرف عنه شيئا .

بينما تبدو في الفصل الأول، مؤلفة لقصة قصيرة وراوية لها في آن، وتظهر عالمة بكل شيء عن البطلة لا البطل، فعلى الرغم من كونها خارج النص، تعرف داخلها، وتساؤلاتها مع ذاتها "أم لأنه لا يريد إذلال الذاكرة، أراد لها طاولة لا يتعرف الحب فيها إليهما"[30]، ولعل معرفتها بداخل البطلة لا البطل، تأكيد على ما ذهبنا إليه من اعتبار الفصل الأول، إيجازا لقصة نصها، حيث تحولت إلى ساردة عليمة بذاتها، جاهلة بالبطل الذي تحب.

ولعل الكاتبة تراعي، بذلك، منطقية الأشياء، فتبدو معرفتها بدواخل شخوص في قصة كتبتها مبررة، لا سيما وأن الكاتب هو الذي يخلق شخص السارد، بيد أن جهلها بالبطل يظل مثار تساؤل وغير مبرر، إلا إذا كانت تروي من زاوية نظر المرأة، وتقف خلفها . ويبدو جهلها، بشخوص رواية هي راويتها، مطابقا لطبيعة الإنسان أيضا؛ إذ يعرف ذاته تماما، بينما يجهل غيره، إلا ما يبدو له منه. وكل ذلك من قبيل اللعب الفني؛ ذاك أن جهل الراوي شبه التام "ليس إلا أمرا اتفاقيا، وإلا فإن حكيا من هذا النوع لا يمكن فهمه"[31].

نتائج البحث:

1- جاء السرد في الرواية كلها عبارة عن سرد متصاعد، دون أن يخلو من استرجاعات واستباقات.

2- نسجت رواية فوضى الحواس بطريقة خاصة، فبدايتها عفوية ونهايتها مفتوحة.

3- وُضفت الراوية ضمائر الغائب بطريقة فنية راقية.

هوامش البحث

(1) ينظر: الجزائرية أحلام مستغانمي، وروايتها الجديدة عابر السرير، أحمد دحبور، جريدة الحياة، 3،9، 2003م، ص4-19

(2) ينظر: الفن الروائي عند أحلام مستغانمي، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الهاشمية، أردن، عمان، 2003م، ص 23.

(3) ينظر: روايتا أحلام مستغانمي، لذة التفاصيل المستترة، رشيد إدريس، مجلة الآداب، عدد9، IO، بيروت، 2000م ، ص 6 - 20.

(4) ينظر: روايتا أحلام مستغانمي، لذة التفاصيل المستترة، رشيد إنريس، ص 4-14

(5) مقدمة لدراسة المروي عليه، جيرالد برنس، ترجمة: علي عفيفي، مجلة الفصول، عدد2، مجلد 12، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، ص 84.

(6) فوضى الحواس، أحلام مستغانمي، منشوراتي أحلام مستغانمي، ط14، بيروت، لبنان، P004، ص 370.

(7) المصدر نفسه، ص 370.

(8) المصدر نفسه، ، ص 370.

(9) فوضى الحواس، مستغانمي، ص 239.

(10) المصدر نفسه، ، ص 189.

(11) المصدر نفسه، ص 189.

(12) المصدر نفسه، ص 169.

(13) المصدر نفسه، ص 272.

(14) المصدر نفسه، ص 273.

(15) المصدر نفسه، ص 171..

(16) فوضى الحواس، مستغانمي، ص 45.

(17) المصدر نفسه، ، ص 372، وغيرها.

(18) المصدر نفسه، ص171 وغيرها.

(19) المصدر نفسه، ص 371.

(20) فوضى الحواس، مستغانمي، ص 364.

(21) المصدر نفسه، ص 7. وغيرها.

(22) المصدر نفسه، ص 259.

(23) المصدر نفسه، ص 175. وغيرها.

(24) فوضى الحواس، مستغانمي، ص90.

(25) المصدر نفسه، ص73.

(26) المصدر نفسه، ص177.

(27) المصدر نفسه، ص 163 - 165
(28) المصدر نفسه، ص 92.
(29) المصدر نفسه، ص 307.
(30) المصدر نفسه، ، ص 14.
(31) ينظر: بنية النص الســـردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2000م، ص 48.